الفصل الثالث

السعوديون والركن الرابع

الوقفة الأولى:

رمضان

لعلَّ من أسعد الناس من يلحق بشهر رمضان المبارك، فيوفَّق في صيامه وقيامه وفعل الخيرات فيه. ولذا نجد العلماء والأئمة والخطباء، مع قُرب حلول شهر رمضان المبارك، يبدءون في الدعاء بأن يبارك الله تعالى لنا، جميعًا، في رجب وشعبان، ويبلَّغنا رمضان. ولعلَّ من أسعد الناس من يترقَّب هذا الشهر الكريم، ليقدِّم لنفسه ولغيره الخير. وما دامت هذه هي النية، فإن مثل هؤلاء الناس على خير، حتَّى لو لم يبلغ بعضهم رمضان، فإن الله تعالى — وهو واسع الرحمة — يحاسب من ينوي الخير بالثواب، حتَّى إذا عاق عائق غير إرادي دون فعل الخير، الذي بيَّت النية لفعله.

أعجب لنداءات بعض الزملاء الصحفيين والمتعاملين مع الصحافة إلى الدعوات المتكررة لتقليص الأداء في شهر رمضان المبارك، لاسيَّما في المجال التربوي، وتهيُّب بعض المهتمين من استمرار الدراسة في هذا الشهر الكريم، وبالتالي موافقة الاختبارات في بداية الشهر، وكأن هذا الشهر لا يصلح للأداء والعمل والاستذكار والتحصيل العلمي. وهو ليس كذلك، ولم يُرد له أن يكون كذلك، بل ربَّما أريد له أن يكون شهر عمل وعبادة وجهاد، بالمفهوم الأشمل لكلمة العبادة والجهاد، المتمثِّلة في الأداء

والعمل والتحصيل العلمي والاستذكار والتعليم، ما قصد بها جميعًا وجه الله تعالى، فيضاعف فيها الأجر المستحقُّ لكل مسلم ينظر هذه النظرة، ويعدُّ كل خطوة يخطوها في هذه الحياة عبادة لله تعالى.

المؤمَّل أن يركِّز الإعلام، لاسيَّما الصحافة، على "عملية" هذا الشهر الكريم، مع الأخذ في الحسبان مرور هذا الشهر المبارك في دورة الزمان بفترة الصيف، التي تفرض قدرًا من التعب والإعياء، ولكن هذا يعالج في حينه. لاسيما في فصل الشتاء، فدورة الزمن تجعل هذا الشهر المبارك يصادف فصل الشتاء البارد، الذي يقصر فيه النهار ويطول فيه الليل. وهذا يعني أننا نصوم هذا الشهر – في معظم البلاد شرقها وغربها – ما معدَّله اثنتا عشرة ساعة في جوٍّ بارد. وهذا يؤيِّد التوكيد على تحبيذ الاستمرار في العمل في هذا الشهر الكريم، كما قبله من الشهور وما بعده.

عليه، فربَّما كان من الأجدى استمرار "الدوام" على ما هو عليه، أو ربَّما التبكير فيه لساعة على الأقل، بحيث يبدأ بعد ساعة من خروج الناس من صلاة الفجر. وقد جرَّبتُ هذا الأسلوب شخصيًا في كلية العلوم الاجتماعية بجامعة الإمام محمَّد بن سعود الإسلامية، وكنتُ وكيلاً للكلية، ووجدتُ أنه ذو جدوىً عملية، لم أكن أتوقَّعها، لاسيَّما مع الطلاب والشباب، ولكنهم، مشكورين، خيَّبوا ظني، وكانوا أنشط مما كانوا عليه من قبل، وتفاعلوا مع التبكير، فكان لهذا أثره على التحصيل.

ليت صحافتنا، ممثَّلة بالكتاب المهتمِّين بالإدارة العامة لهذا المجتمع الفاضل، يتوجَّهون إلى التوعية بضرورة أخذ هذه الفكرة بعين الاعتبار.

* * *

الوقفة الثانية:

في العبادة

إن مما يؤثر عن السلف الصالح أنهم كانوا يجعلون من هذا الشهر المبارك شهر عمل متواصل، وهو شهر جهاد، بالمفهوم العام الشامل للجهاد. لم يتوقَّف المسلمون في شهر رمضان عن العمل، بل إنهم تعمَّدوا مضاعفة العمل في هذا الشهر الكريم.

لقد مرَّ علينا زمان ليس بالبعيد أسأنا فيه هذا المفهوم، لم نُسِئْ المفهوم كلنا، ولكن معظمنا أساء مفهوم العمل في رمضان، فتحوَّل الشهر من شهر عمل مضاعف إلى شهر يخيِّم عليه الخمول والكسل، والنفسية أملت على الكثيرين أن كل شأن من شؤون الدنيا ينبغي أن يتوقَّف، أو، على أقل تقدير، يتباطأ في سيره، بحجّة أننا قومٌ صائمون، وينبغي عدم إزعاجنا بأمور الدنيا.

هذا يعطي الانطباعة أن هذا الشهر وقفٌ على الصيام، الذي هو طاعة لله، ولا شك، لكن الإساءة، هنا، أننا نفصل في مفهوم الطاعات بين العبادات المباشرة التوقيفية، كالصلاة والصيام والزكاة والحجّ، والعبادات غير المباشرة، التي يدخل فيها العمل اليومي في أيٍّ مجال من مجالات العمل. فكأن أركان الإسلام الأربعة، بعد الشهادتين، هي العبادات، وما غيرها ليس من

العبادات، بل هي من شؤون الدنيا، التي ينبغي، في هذا المفهوم، هجرها خلال شهر الطاعات والعبادات.

هذا المفهوم يضرُّ بالأُمَّة، كما هو مضرٌّ بالفرد. ويأتي من الحاجة إلى استقرار مفهوم العبادة في النفوس، إذ إن العبادة لله تعالى ليست مقصورة على هذه الممارسات المفروضة التوقيفية فحسب، بل إن كل تصرُّف في حياة المرء، معقود بالنية، يمكن أن يكون عبادة لله تعالى، ينال عليه العبد الأجر والثواب من الله تعالى.

العمل اليومي، في أي مجال من مجالات العمل، يمكن أن يدخل في مفهوم العبادة، إذا ما اقترن بالنية بأنه عبادة لله. وعليه يتبيَّن أن السلف الصالح قد أدرك هذا المفهوم من قبلنا؛ لأنه كان أقرب منا إلى المنبع، فعمل في شهر رمضان أضعاف ما كان يعمله في غير شهر رمضان المبارك. وانتشر الإسلام بين الناس في شهر رمضان، وفي غير شهر رمضان، وكان شهر رمضان المبارك قد شهد أحداثًا كان لها أثرها على المسلمين، وعلى انتشار الإسلام، ولم ينتظر المسلمون حتَّى يخرج الشهر، ليفتحوا مكَّة المكرَّمة، أو ليقاتلوا أعداءهم من الصليبيين واليهود والشيوعيين والوثنيين، وغيرهم. فإذا كان هذا حال المسلمين مع القتال والجهاد، فإن حالهم في حياتهم اليومية لا تقلُّ عن هذه الحال.

اليوم، وبفضل من الله تعالى، ثم بفضل الوعي المستمرِّ بين الناس، بدأت تعود إلى شهر رمضان المبارك معانيه الأصيلة، التي ارتبطت به، إذ إن الدعوة إلى تصحيح المسار وتصحيح المفهوم لها

أثرها القوي على الناس في أن يضاعفوا من أعمالهم في هذا الشهر المبارك، ويجعلوا جميع سلوكياتهم تعود في النهاية أجرًا لهم عند الله، وإن كانت قد تتوقّف على إنجاز معاملة أو على استقبالٍ طيّبٍ لمراجع، أو على أنها خدمة لآخر، أو على تقديم رأي أو مشورةٍ لمستشير.

هذه بادرة طيّبة تحتاج إلى المزيد من التركيز، حتّى نعود إلى المفهوم الصحيح للممارسات، في شهر رمضان المبارك، وهذا يعني أن ساعات الصيام تقلُّ في النهار سنة بعد سنة وأن الليل يطول، مما يتيح مجالاً للراحة، تنعكس على الأداء اليومي للأعمال، وهذا مؤشّر مشجّع فقط، وليس مبررًا للإساءة إلى مفهوم الصيام، في الأزمنة التي كان فيها النهار أطولَ من الليل، وكانت الحرارة فيها عالية، فالذي نفهمه أن شهر رمضان كان قد حلَّ على المسلمين في وقت الحرارة والصيف. ومن هنا يأتي اشتقاق رمضان من الرمض، وهو شدة وقع الشمس على الرمل، كما يقول الفيروز آبادي في القاموس المحيط، وقيل غير ذلك في أسباب تسمية هذا الشهر الكريم برمضان.

على أي حال فإن المؤمَّل أن يكون هذا الشهر المبارك حافزًا لنا على مضاعفة أعمالنا، وابتغاء وجه الله فيها والدار الآخرة. والجزم بأن أي إنجاز نقصد فيه وجه الله تعالى، من خلال هذه الأعمال، سيعود علينا بالخير في هذه الدنيا وفي الحياة الآخرة.

الوقفة الثالثة

الاحتيال على الصيام

من نتائج البعد عن الفهم الصحيح للصوم، في شهر رمضان بخاصة، نجد في المجتمع المسلم بعض الممارسات التي تحاول الاحتيال على الصيام. وهذا الاحتيال إنما يأتي من أن الصيام عبء على الصائم، أو على الشخص الذي يجب عليه الصيام، ولذا ظهرت الحيل التي تسعى إلى الهروب من هذه المسؤولية.

تعدَّدت وسائل الاحتيال على شهر رمضان المبارك في مسألة صيامه، ومن هذه الوسائل:

١- تقطيع الصيام بالسفر، كما يؤثر عن أحدهم قوله: والله لأقطعنَّه بالأسفار، وكأن السفر عذر دائم عن الصوم، ومهما سافر المرء إلا أنه مطالب بالقضاء، والصيام مع عموم المسلمين شهرًا كاملاً أهون على مثل هذه النفوس من الانفراد بالصوم، مهما كان زمن الصوم، فيما يتعلق بالحرارة والبرودة في الجو.

٢- تنتخب بعض المجتمعات الصغيرة ثلاثين شابًا من أبنائها، ويصوم كل واحد من هؤلاء الثلاثين يومًا واحدًا من شهر رمضان المبارك، ويعدُّ صوم هؤلاء الشباب الثلاثين صومًا للمجتمع كله.

٣- يعمد بعض الناس في مجتمعات صغيرة أخرى إلى صيام أول يوم من شهر رمضان المبارك وآخر يوم منه، وبهذا يظنون أنهم سيطروا على الشهر كله، بصيام أوله وآخره.

٤- هناك اعتقاد عند بعض المجتمعات الصغيرة، داخل المجتمع المسلم الكبير، أن الصيام وبقية الطاعات والعبادات إنما هي للكبار في السن، لأنهم قريبون من الموت، وكأن الإنسان يعلم متى يأتيه الموت، مع أن هناك توقُّعًا بنهاية حياة المرء بعد الكبر والهرم، ولكن ليس هناك علم بأن أي إنسان سيصل إلى هذه المرحلة من العمر.

٥- ومن أشكال الصيام عند كثير من المجتمعات الإمساك عن الأكل والشرب والشهوة فحسب، ولا يغيِّر هذا الشهر من نمط الحياة عند هؤلاء، سوى الامتناع عن هذه العناصر الثلاثة المعتادة عند البشر، فالمرابي يستمر على مزاولة الربا، والمرتشي يستمر في تسلُّم الرشوة، وسليط اللسان يزداد لسانه سلاطة، والمغتاب يستمر في غيبته، والنمَّام يستمر في نميمته، ومن عنده خصلة من نفاق أو خصال يستمر عليها، ولم يغيِّر رمضان من حياته في جانب الممارسات شيئًا.

ليس الفهم هنا ينقاد إلى أنه يطلب من هؤلاء الإقلاع عن هذه الأفعال في شهر رمضان المبارك، ولا بأس من العودة إليها، بعد

انتهاء الشهر على طريقة:

رَمَضَانُ وَلَىَّ هَاتِهَا يَا سَاقِي　　　مُشْتَاقَةً تَدْعُو إِلَى مُشْتَاقِ

بل إن الفهم هنا ينقاد إلى أن يتخرَّج من مدرسة رمضان تائبون إلى الله، مقلعون عن هذه الأفعال، إقلاعًا لا رجعة فيه.

إن كانت الوسائل الأربع الأولى في الاحتيال على شهر رمضان المبارك تتمُّ عن جهل، أو كسل، أو تضايُق من الركن الرابع من أركان الإسلام، فالجهل ينقشع بالعلم، والكسل يزول بالإيمان، والتضايق يتلاشى مع التعلُّق الصادق بالله تعالى، فإن الاقتصار على مجرِّد الإمساك دون الإقلاع عن العادات الضارَّة بصاحبها وبمجتمعه، إنما هذا مرض يحتاج إلى المزيد من التربية والتوجيه والتذكير، بالإضافة إلى قوَّة السلطان، فيما يتعلَّق بالأخلاق الفاسدة، الممارَسة عمليًا في المجتمع.

ينبغي على المسلم أن ينظر إلى شهر رمضان المبارك، وإلى الصيام بعامَّة، على أنه له وِجَاءٌ من كل عمل سيئ ضار. ففيه عون للمرء على الشيطان، وعلى وساوس النفس، وفيه تقوية للإيمان وتقوية للإرادة، بما فيه من الصبر والتحمُّل.

هذه الأشكال في النظرة إلى الصيام تضيف على علماء الأُمَّة أعباءً فوق الأعباء التي يضطلعون بها، في سبيل الدعوة إلى الله تعالى على بصيرة، ودفع الناس إلى الالتزام التام بالمعاني الحقَّة للتكليفات.

* * *

الوقفة الرابعة

التدخين في رمضان

مع انقضاء شهر رمضان المبارك تكون هناك حالات متعدِّدة من أولئك الأشخاص الذين خرجوا بحصيلة طيبة من العمل الصالح، بين الصيام والقيام وقراءة القرآن الكريم، وعمل الخير بالزكاة والصدقات، وكفِّ اللسان والجوارح عن اللغو والآثام، التي ربَّما كان الشخص يقع فيها بين مدَّة وأخرى، بل ربَّما يقع فيها في مُدد متقاربة.

مما عمَّت به البلوى في المجتمع المسلم، مثله في ذلك بقية المجتمعات، لاسيَّما تلك المجتمعات النامية، ظاهرة التدخين الاستهلاكي، السلبي والإيجابي، إن كان هناك تدخين إيجابي.

من فوائد هذا الشهر الكريم المباشرة إقلاع عدد من المُبتلَين بهذه المشكلة عن التدخين، إقلاعًا قائمًا على الاقتناع التام. والذي أعلمه أن كل مدخِّن يرغب – من قريب أو بعيد – في ترك التدخين بأنواعه، ثم يأتي هذا الشهر المبارك ليجبر المدخِّن على تركه – أي التدخين – بمعدَّل اثنتي عشرة ساعة، على الأقل في اليوم الواحد. وهناك من يضيف إلى ذلك ساعات أخرى. ولو كانت هناك قدرة على الإحصاء في شهر رمضان المبارك لمن تركوا التدخين لوجدنا أرقامًا مفرحة، تدلُّ على تأكُّد الرغبة في ترك هذا البلاء.

مثل ذلك يقاس على بعض "المعاصي" التي يرتكبها بعض المسلمين، فيأتي شهر الخير ليعين – بعد عون الله – على ترك هذه المعاصي، رغم كثرة المغريات للقيام بها. ومردُّ ذلك أن الإنسان، بطبعه، ميَّال إلى الخير وفعله، ويرتاح كثيرًا عندما يقوم بترك معصية هي منغِّص في حياته، مهما أعطته من متعة مؤقَّتة وسريعة الزوال.

لأن المرء قد جُبل على حبِّ الخير، فإن هذا يعني أن هذا الشهر المبارك مدعاة لعمل الخير والاستمرار فيه، بعد انقضاء الشهر الكريم. ومجالات الخير واسعة متعدِّدة. وكل فرد يرى أنه مقصِّر في مجال من مجالات الخير يتنبَّه إلى هذا التقصير، فيتلافاه.

للتمثيل، فقط، فإن من هذه المجالات صلة الأرحام، والالتفات إلى الأهل والأولاد، والسعي إلى "توطيد" العلاقة بهم، وتفقُّد أحوالهم. ولعلَّ بعضنا يدرك مدى السعادة الذي تشعر به الوالدة أو الوالد، عندما نجلس بين يديهما، نشاركهما فنجانًا من القهوة أو الشاي، ونأخذ عن خواطرهما، ونبثُّهما شيئًا يسيرًا من همومنا. هذا السلوك، اليسير عندنا، عظيم عندهما. وعلى هذا يمكن القياس والترقِّي في فعل الخير لمن أنعم الله عليهم في الترقِّي في فعل الخير من تنفيس الكربات، وقضاء الحاجات، وجبر العثرات، وتحسُّس أصحاب الضائقات.

إنَّ فوائد شهر رمضان الكريم في الدنيا والآخرة عظيمة، وفضل الله تعالى واسع. ومن أفضال هذا الشهر الكريم نزوع

المسلمين إلى التغيير إلى الأفضل. والسعيد منا من ظهر عليه فضل أو أكثر من هذه الأفضال، فاهتبل الفرصة، وأصرَّ على الاستمرار في فعل الخيرات، والإقلاع عن المعاصي.

* * *

الوقفة الخامسة

التوبة في رمضان

في هذا الشهر المبارك يكثر الحديث عن الرجوع إلى الله تعالى بالتوبة عن المعاصي والذنوب التي يقترفها المرء. ومن نعم الله تعالى على عباده قبوله لتوبة التائبين، ولو ملئوا الأرض من الخطايا والذنوب. وقد يستكثر المرء الذنوب ويستبعد أن يغفر الله له هذه الذنوب، ولكن الله تعالى يفرح بتوبة عبده، ويمحو السيئات عنه ما صدق في التوبة، وحقق شروطها المعتبرة شرعًا.

ليس هناك تحديد لعمر المرء، يتوب فيه، أو قبله أو بعده، فالتوبة مفتوحة للعباد ما داموا أحياء. والرسول ﷺ يقول: «إن الله عزَّ وجلَّ يقبل توبة العبد ما لم يغرغر».[1] وليس تقدير قبول التوبة متروكًا لتقديرات البشر، وإلا لما قبلت توبة عبد من عباد الله، لأن البشر يستعظمون الآثام، ولا تستوعب أذهانهم، التي هيأها الله

---

(١) رواه الترمذي في كتاب الدعوات، باب في فضل التوبة والاستغفار. حديث رقم ٣٤٦٠. ورواه ابن ماجه في كتاب الزهد، باب ذكر التوبة. حديث رقم ٤٢٤٣. ورواه الإمام أحمد في المسند، مسند المكثرين من الصحابة. حديث رقم ٥٨٨٥.

لهم، أن بعد هذه الآثام توبة، ولكن رحمة الله وسعت كل شيء، ولا يطلب من التائب العائد إلى الله تعالى إلا التوبة النصوح.

أما مسألة ما يعمد إليه بعض الناس من المبالغة أحيانًا في بعض الأعمال بعد التوبة، بحجّة أنهم يكفّرون عما سلف، فإن في هذا الأمر إرهاقًا للنفس، وخروجًا عن الحدّ المطلوب من العبد التائب. وذلك لأن بعض التائبين قد يلجأ إلى أعمال، يظن أنها تقرّب من الله تعالى، بينما هي ليست من العبادات التي وردت بها السنة، ودعا إليها الرسول الأمين ﷺ قولاً أو فعلاً أو إقرارًا.

عليه، فإن المرء التائب العائد إلى الله تعالى مطالب بأن يبحث عن أفضل الطرق التي تقرّبه من الله، دون غلوٍّ في التقرُّب، أو مبالغة فيه، إلى الحدّ الذي يخرج عن الاستطاعة والوسع، الذي نصّ عليه كتاب الله تعالى في قوله تعالى: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ... ﴾ (البقرة ٢٨٦)، وفي قوله تعالى: ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (التغابن ١٦).

عندما تقارَن أفعال الخير بأفعال الشر نجد أن أفعال الخير متواضعة، من حيث القيامُ بها، بالمقارنة بأفعال الشر، التي قد تودي بحياة إنسان بغير حق، أو بظلم، أو بالتعدِّي على آخر وسلبه حقوقه، أو بحرمانه من إحدى الضرورات الخمس في الحياة والمال والنفس والدين والعرض. وآثار الخير مطمئنة للنفس، أما آثار الشر

فإنها تورث الأرق والقلق، وتأنيب الضمير والندم على الأفعال. والندم وحده مطلب ملح من مطالب التوبة إلى الله تعالى.

أعرف أشخاصًا غاصوا في الرذيلة، وجرَّبوا أنواعًا من الشرِّ، لا تخطر على بال الغافلين، ولا يتصوَّر الخيِّرون أن يقوم بها بشر، وآذوا كثيرًا من الناس، وطاردتهم الأجهزة والسلطات الأمنية، وأُدخلوا السجون، فأفسدوا فيها، وهي دور إصلاح، ثم يشاء الله تعالى أن يشرح صدورهم للتوبة، فيهتدوا ويطمئنِّوا وتطمئنُّ قلوبهم بذكر الله تعالى، ويذوقوا حلاوة الإيمان.

أجد هؤلاء قد سخَّروا خبراتهم التي اكتسبوها في الشرِّ لمحاربة الشرِّ وأهله، ودعوة أهل الغواية وتنويرهم، ومخاطبتهم بلغتهم التي يفهمونها، فتوجَّه هؤلاء التائبون إلى السجون، يدعون إلى الله تعالى فيها، ويقودون كثيرًا من الضالين إلى الطريق الحق، فيهتدي على يديهم خلق كثير، وتستعين بهم الأجهزة الأمنية في مجتمعات غير مسلمة، للتعامل مع المجرمين والتحدُّث إليهم، وتوظِّفهم في المعاهد الإصلاحية، وهم بهذا يكفِّرون عمليًا عما اقترفوه في جهالتهم الجهلاء وضلالتهم العمياء.

بعيدًا عن الغلوِّ في التفكير، فقد قرَّ في قلوبهم أن الله تعالى يغفر الذنوب جميعًا، وأنه تعالى يتجاوز عن السيئات، وكل إثم واقع تحت مشيئته تعالى في المغفرة، إلا أن من سنته تعالى في خلقه أنه لا يغفر لمن يشرك به، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا

بَعِيدًا ﴾ (النساء ١١٦)، وكان هذا موضع اطمئنان لهؤلاء التائبين، ولكنه ليس مجالاً للاتِّكالية، وإسباغ شيء من المنَّة على الله تعالى في التوبة، فإن الله تعالى، وهو يفرح بتوبة عبده، لا يضره ألا يتوب العباد، ولا ينفعه أن يتوب جميعُ العباد، وهو وحده سبحانه وتعالى الذي يمنُّ على عباده بالهداية في الدنيا، وبالمغفرة في الآخرة.

إن أبواب التوبة مشرعة في الشهر المبارك، وفي غيره من الشهور والأيام، وليس الوقت متأخِّرًا على أحد أن يعود إلى الله تعالى، قبل إن يغرغر، وعندها لا يكون هناك مجال للتوبة، أو الندم، أو الرجوع إليه تعالى.

* * *

الوقفة السادسة:

المشقَّة في الصيام

نحن نردِّد كثيرًا أن شهر رمضان المبارك شهر كريم، والنظرة البشرية تستبعد الكرم من شهر، يكون نهاره صيامًا وليله قيامًا. وتخفُّ فيه الشهوات، بل تتقلَّص إلى حدٍّ كبير، في المآكل والمشرب والشهوة، و يزداد معيار مراقبة النفس في الأفعال والأقوال. وينضبط اللسان، فلا ينطق إلا خيرًا، ولا يردُّ على الشرِّ إلا بالخير، فإن سابَّه أحد أو شاتمه فليقل «إني صائم».[1] والمسابَّة والمشاتمة أبلغ من السبِّ والشتم، إذ إن المشاتمة تستدعي وجود طرفين، أو أكثر، يشتم أحدهما الآخر، فيشتم الآخرُ الأوَّل، وهكذا تحصل المشاتمة، وكأني بالحديث يلمح إلى رغبة الشاتم الأول في تبادل الشتم، لتكون مشاتمة بين طرفين. ولكن الصائم يتوقَّف عن الاستجابة لهذه الدعوة، ويردُّ على شاتمه بأنه صائم، ولا يحقُّ له، ولا يحلُّ له، المبادلة بالمثل، ناهيك عن أن يبادل بما هو أقوى.

(١) رواه البخاري في كتاب الصوم، باب فضل الصوم. حديث رقم ١٧٦١. ورواه مسلم في كتاب الصيام، باب فضل الصيام. حديث رقم ١٩٤٤.

من كرم هذا الشهر المبارك على المسلم أنه بامتناعه عن ممارسات، حري به أن يمتنع عنها في كل الأوقات، يعود المسلم إلى الامتناع عنها شهرًا كاملاً، ثم ما يلي الشهر الكريم من أشهر، حينما يجدُ في الدعاء بالقبول لستة أشهر، تأتي بعد شهر رمضان المبارك. فإذا استمرَّ على الامتناع عن هذه الممارسات أكرمه الله تعالى بالخير والأجر والثواب والمغفرة والتوبة، وجماع ذلك تسهيل الحساب عليه، ثم يصل إلى منزلة أولئك الذين يدخلهم الله الجنة من باب الريان، باب الصائمين، بغير حساب ولا عقاب.

من كرم هذا الشهر، أيضًا، تعويد النفس على الصبر عن الملذَّات، والصبر على المشقَّة، التي قد تبدو للبعض أنها مشقَّة، وما هي إلا ترويض للنفس، وخروج بها من النمط المستمرِّ في الحياة، والنفس بحاجة إلى الترويض والتعويد على التغيير، وعدم الالتزام بنمط سائد في الحياة، فما يدري الإنسان ما يمرُّ به بشخصه أو مع غيره من ابتلاء بمرضٍ، ينغِّص عليه نومه وراحته، أو يمنعه من التمتُّع، بحرِّية، في المأكل والمشرب والشهوة.

نحن نرى نماذجَ بيننا قد ابتلوا ببعض الأمراض، التي تتطلَّب نمطًا من أنماط السلوك الغذائي الخاصِّ، فهم في حمية مستمرَّة، يمنعون من أكل أشياء وشرب أشياء، ويطلب منهم التوكيد على أنواع من الطعام والشراب، ومن هنا قد تأتي الحكمة في التوكيد على استمرار الصيام في حياة المسلم في أوقات متفرِّقة من الأسبوع والشهر والعام، فالاثنين والخميس يومان فاضلان في الأسبوع، وأيام البيض أيام فاضلة في الشهر، ويوم عرفات ويوم عاشوراء يومان فاضلان في السنة،

وهكذا، بل إن أفضل الصيام بعد شهر رمضان المبارك صيام داود — عليه السلام —، فقد كان يصوم يومًا ويفطر يومًا.

ثم من كرم الشهر الكريم أن أعمال الخير فيه مضاعفة، والنصوص تؤكِّد على ذلك، فيما يتعلّق بالطاعات والحسنات، من حرص على تمام الصوم، ثم من حرص على الإنفاق وكثرة النوافل وقراءة القرآن الكريم بتدبُّر، والعمرة في رمضان، والصلاة في بيت الله الحرام، وغيرها كثير من أعمال الطاعات التي يتضاعف فيها الأجر في هذا الشهر المبارك، والمعلوم أن أعمال الخير تزداد في هذا الشهر الكريم، رغبةً في مضاعفة الأجر، إذ إن المؤسَّسات والهيئات الخيرية، في بلاد المسلمين بعامَّة، وفي هذا البلد بلد الخير بخاصَّة، تُضاعَف أضعافًا كثيرة، ولله الحمد.

المحصِّلة النهائية أن هذا الشهر المبارك شهر كريم على العبد، ما سعى إلى استغلال هذه الناحية، فانطلق إلى وجوه الخير من العبادات، بالمفهوم الشامل للعبادات، التي تعود بالنفع، أوّلاً، على صاحبها، ثم تنطلق إلى المجتمع المسلم كله، بالخير والبركة. ولو فرضنا أن العبد اقتصر من العبادات على الفرائض فقط، كالصلوات، فإن فيها الخير عليه وعلى غيره، إذ إن هذه الصلوات، بأوقاتها وفروضها وأركانها وشروطها، سوف تنهى هذا العبد عن الفحشاء والمنكر، فينتفع هو، وينتفع المجتمع منه، بابتعاده عمَّا يسيء لمن حوله.

* * *

الوقفة السابعة:

الصلح في رمضان

تعوَّدنا في الشهر الكريم، شهر رمضان المبارك، على الخير، وفي شهر رمضان المبارك خاض الرسول ﷺ معركة بدر الكبرى، وبعدها انطلق المسلمون إلى الدنيا، وزادت الانتصارات في كل الشهور وفي شهر رمضان المبارك، لاسيَّما بعد بدر وفتح مكَّة.

قبل أعوامٍ مضت انتصر المسلمون المجاهدون في أفغانستان على الشيوعية، وكان هذا في شهر رمضان المبارك من عام ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.[١] ثم حصل بين المجاهدين الأفغان ما حصل، طيلة العام الذي تلاه، مما كان غُصَّة في نفوس المسلمين بعامَّة، لأن مفهوم الجهاد كلُّه قد تأثَّر، بما حصل بين المجاهدين، الذين ينظر إليهم على أنهم حجّة على الجهاد، مع أن الأصل أن ينظر إلى

(١) كان هذا التاريخ هو الإعلان الرسمي لخروج الروس من أفغانستان، والواقع أن خروج آخر جندي روسي كان يوم الأربعاء ١٤٠٩/٧/٩هـ الموافق ١٩٨٩/٢/١٥م، حيث قال أحد ألوية الروس إنه لن ينظر إلى الخلف، حيث كانت الضحايا أكثر من خمسين ألف مقاتل روسي، وأكثر من مليون مجاهد أفغاني، وأكثر من أربعة ملايين لاجئ أفغاني. انظر: علي بن إبراهيم النملة. الجهاد والمجاهدون في أفغانستان: وقفات تقويم. — الرياض: مكتبة العبيكان، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م. — ص ٦٢.

الجهاد على أنه حجّة عليهم، ولكنهم بشر يعيشون في القرن الهجري الخامس عشر، الواحد والعشرين الميلادي، وهم جزء من مسلمي اليوم، بما لدى مسلمي اليوم من جوانب تقصير كثيرة. ولكن المسلمين في كل مكان رفضوا أن ينظروا للمجاهدين الأفغان على أنهم جزء من مسلمي اليوم، أراد بعض الناس من المسلمين أن ينظروا للأفغان على أنهم من مسلمي الأمس، بما لدى مسلمي الأمس من جوانب كمالٍ إيماني، مع بشريتهم.[(١)]

في الشهر المبارك، شهر رمضان الخير، تتحرَّك الجهود، وتصدُر النداءات من قادة هذه البلاد من القيادة السياسية والقيادة العلمية، وهما قيادتان في قيادة واحدة. وينظر إلى هذا الشقاق الدائر بين الأشقاء على أنه طال، ولم يأت بنتيجة تنفع الأفغان، فكانت النداءات التي توِّجت بالجهود من القيادتين السعودية والباكستانية، حيث جرى تكثيف في الاتصالات، فاجتمع القادة الأفغان في مكان واحد، والتقوا بالمسؤولين من باكستانيين وسعوديين، وتصافح الأحبة، وجلسوا جلسات جادَّة فيها رسم واضح لمسيرة الدولة الإسلامية في أفغانستان، بعد الاحتلال الشيوعي، الذي دام أكثر من خمسة عشر عامًا.

يلتقي الأفغان على أرض الخير، على أرض الصلح والإصلاح، والصلح خير، ليتعاهدوا أمام الله تعالى أن يبدءوا مسيرة جديدة في

---

(١) انظر في تقويم الحركة الجهادية في أفغانستان: علي بن إبراهيم النملة. الجهاد والمجاهدون في أفغانستان: وقفات تقويم. — المرجع السابق. — ١٢٤ ص.

بناء شعب، وفي بناء دولة، وفي بناء بلد إسلامي، يحتاج إلى الكثير من مقوِّمات البناء، بدءًا بالبنية الأساسية التي قضت عليها الحرب. وإذا ما رأى المسلمون في كل مكان الجدِّية في البناء، فإنهم لن يتردَّدوا في الإسهام في هذا البناء بقدر الاستطاعة. ولا أتردَّد في التوكيد على أن المسلمين سيتسارعون في بناء البلد الرمز، الذي رفع راية الجهاد لمدة غير قصيرة.

إن الأفغان لا يتحمَّلون مسؤولية بلادهم وإخوانهم في الداخل فحسب، بل إنهم يتحمَّلون مسؤولية جميع من وقفوا معهم، طيلة السنين الماضية، فصار حقًّا لهم عليهم أن يتغلَّبوا على أنفسهم وعلى الشيطان، ويكونوا يدًا واحدة تبني، والأخرى تمد يدها للآخرين بالخير، مقدِّمة لهم الأنموذج المثالي للوقوف في وجه التيارات، التي يعاني منها المسلمون في كلِّ مكان.

حيًّا الله أولئك الرجال الذين لم يرضوا أن تكون النتيجة بهذه الصورة، فدعوا المختلفين إلى التلاقي، ونبذ الخلاف، من منطلق مسؤولية هؤلاء الرجال الذين وقفوا مع القضية، داعمين لها ماديًا ومعنويًا. فكان الوئام بين الأفغان جزءًا من مسيرة الجهاد، التي بدأت قبل أربعة عشر عامًا. إلا أن الرياح جرت بما لم تشتهِ السفن![1]

* * *

(١) صارت لهذه المسألة تداعيات مؤلمة لأمَّة الإسلام. وظهرت التقارير والتطوُّرات التي أحدثت غصَّةً في ضمير المسلمين.

الوقفة الثامنة:

تكرار شهر رمضان

يتكرَّر شهر الخير على الأُمَّة سنويًا، وكأنه لدى الأفراد لا يتكرَّر، لأن لكل موسم، يتكرَّر من هذا الشهر المبارك يمرُّ، طعمًا خاصًا له من الروحانية، ما يجعله موسمًا جديدًا على الفرد. والعجيب أنه رغم تكرار هذا الشهر المبارك إلا أن المسلم يرحِّب به، ويدعو الله تعالى أن يبلغه رمضان، كلَّما أقبل. وهناك دعاء مأثور بذلك. فهو بحقٍّ شهر خير ورجوع إلى الله تعالى. ولا يعني هذا أن المؤمن قد ابتعد عن الله، ولكنه "يكثِّف" طاعته وعبادته وأعمال الخير في هذا الشهر المبارك، لأن الأجر فيه مضاعف.

العجيب، أيضًا، أنه في هذا الشهر المبارك يكثر المتردِّدون على المساجد، على اعتبار أن الصلاة هي الركن الثاني، والصيام هو الركن الرابع، فهل هذا يعني أن الناس لا يصلُّون قبل رمضان، ثم يصلُّون فيه؟ لا أظن هذا صحيحًا على إطلاقه، فهناك اعتبارات كثيرة تحول دون وجود كل الناس في المساجد، وقت الصلاة في غير شهر رمضان، بينما نجد أن هذه الاعتبارات الكثيرة تخفُّ كثيرًا في شهر رمضان، وهذا مبني على حسن الظن بالناس جميعًا. والحظيظ منا من يتمكن من "تكثيف" جهده الذي كان يحافظ عليه قبل شهر رمضان وبعد شهر رمضان.

لـن يـستطيع كاتـب إضـافة شـيء جديـد علـى هـذه المناسـبة، سـوى الـتفكير الـذي أرى أن مكانـه غـير هـذه الوقفـة الـضيقة. ولكنها، أي الوقفة، تضم صوتها إلى أصوات كثيرة، تحمد الله وتشكره على أن بلّغ صاحبها هذا الشهر المبارك. وتبتهج هذه الوقفة بهذه المناسبة المباركة الطيبة، وتدعو الجميع إلى إعطائها ما تستحقُه من المقام، على اعتبار أنها مناسبة روحانية، فيها صلة أقوى بالله تعالى، وبالتالي إعادة النظر – عند بعض الناس – الذين قد يرون أنها مناسبة "فنية" أو "اقتصادية" أو "ترويحية"، لاسيَّما مع طول ليالي الشتاء. والإثم في شهر رمضان ليس كمثل الإثم في غير شهر رمضان، والإصرار على الإثم ليس كمثل الوقوع فيه عَرَضًا، وهكذا.

من الجميل جدًا في حياتنا الروحية أن يمرَّ بنا هذا الموسم الذي نعود فيه إلى أنفسنا، ونسعى إلى التخلُص من التجاوزات التي كنا نقوم بها طيلة الأشهر السابقة، فيكثر انشغالنا في هذه الدنيا وملاحقتنا لها بالأعمال التي لا تنتهي، وتأتي على حساب الراحة النفسية والجسدية، وبالتالي الروحية، إذ ربَّما يقتصر الأمر عندنا – أو عند أكثرنا – على أداء الواجبات، وقليل جدًا من النوافل، وربَّما تجاوز بعضنا النوافل للانشغال، أو بحجّة أننا مرتبطون بأعمال تشغلنا عن النوافل والتزوُّد من الخير.

إنها وقفة يقوي فيها الفرد علاقته مع الله تعالى بالإكثار من اللجوء إليه. وقفة نتفاعل معها، لأنها تولِّد في مكامننا النفسية قدرًا عاليًا من الطمأنينة، ذلك أننا نعمد إلى أن نكثر من ذكر

الله تعالى الذي بذكره تطمئن القلوب: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾. (الرعد ٢٨).

هناك أعداد من المسلمين يكون هذا الشهر المبارك بالنسبة لهم نقطة تحوُّل جذرية في حياتهم الخاصة، التي تمتد إلى حياتهم الأسرية. فما أجمل أن يقلع الشخص عن معصية كان يعملها، فيتوب إلى الله تعالى منها، وبالتالي يسعد أفراد أسرته بهذا التحوُّل الطيب في حياته، مهما كانت هذه المعصية "خفيفة"، فالأسر، وبالتالي المجتمع، يفرح بأن يكون جميع أفراده "نظيفين" من المعاصي... وهكذا.

في المقابل يمكن أن نقول إن من يُقبلون على المعاصي في هذا الشهر المبارك هم قلَّة في المجتمع المسلم، رغم كثرة المغريات الحديثة، التي تجعل من هذا الشهر الكريم مناسبة لإشهار بعض المعاصي، التي لا تُسمَّى، عند بعض الناس، باسمها الحقيقي، بل تُعطى أسماء وإطلاقات جاذبة، ربَّما كان منها ربطها بالمناسبة المباركة، ومع هذا فإن الانقياد لها في الشهر الكريم محدود جدًا، بفضل من الله تعالى، ثم لما هذا الشهر الكريم من مكانة خاصَّة لدى المسلمين جميعًا، وبالتالي استغلال هذا الشهر بأيامه ولياليه، بالتذكير المتواصل، في المساجد والجوامع ووسائل الإعلام، بهذه المكانة وما تتطلَّبه من العودة الصادقة الخالصة إلى الله تعالى. وكم كان هذا الشهر الكريم نقطة تحوُّل جذرية لدى عدد غير قليل من الناس.

تكثُر المواقف في شهر رمضان المبارك خارج نطاق العالم الإسلامي، الذي يدرك أن الشهر شهر صوم. وليست المسألة، هنا، حلول وقت الإفطار والشخص لم يصل إلى البيت، فتحصل له بعض المواقف الطريفة. ولكن الموقف أعمق من ذلك، حينما يحلُّ شهر الصيام المبارك في بلاد الغربة. وقد عشت في تلك البلاد قرابة عشر سنين، صمت فيها خلالها عشرة أشهر من رمضان المبارك. ولا أذكر أني تمكّنت من الصيام داخل المملكة، خلالها، إلا شهرًا واحدًا.

المواقف تبرز هنا، ونحن على مقاعد الدراسة، حينما تكون المحاضرات مسائية، فيحلُّ وقت الإفطار، فنخرج تمرات، نفطر عليها داخل القاعة. ولا نريد الاستئذان، لئلا تفوتنا المعلومات، فيدرك الأساتذة موقفنا هذا، فمنهم من يُكبر هذا فينا، ويتعاطف معنا، وربّما أوقف المحاضرة لدقائق، حتّى نفطر، ونؤدّي صلاة المغرب، ثم نواصل المحاضرة. وهذا غالبًا ما يحدث من الأساتذة الذين يحترمون الإسلام والمسلمين.

هناك فئات قليلة من الأساتذة مَن لا يقدِّرون هذه الشعيرة، ولا يهتمُّون بها، بل ويناصبونها العداء، المتمثّل في عدم السماح بأكل تُميرات وقتَ الإفطار، وإطلاق عبارات نابية مُهينة للطالب المسلم، الذي له فرحتان، فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه. ويحصل هذا غالبًا من أساتذة ذوي خلفية معادية للإسلام والمسلمين. ولم يحصل لي الموقف الثاني، ولكني حُدِّثت عنه، ولا تزال نماذج منه موجودة.

* * *

الوقفة التاسعة:

احترام الصائمين

تعلن وزارة الداخلية في المملكة العربية السعودية، سنويًا، بيانًا تدعو فيه غير المسلمين إلى احترام مشاعر المسلمين في شهر رمضان المبارك، بحيث لا يأكلون ولا يشربون ولا يدخِّنون في الأماكن العامة، أي لا يجاهرون بالإفطار، رغم أنهم غير مطالبين بالصيام. ويمتثل الجميع بهذا النداء السنوي، لأنهم يشعرون أن هذا البلد يحترم الشعائر الإسلامية التي يمارسها المجتمع المسلم، من صلاة وصيام وحجّ وغيره.

هذا الإجراء السنوي له فوائده الواضحة في احترام مشاعر الصائمين، وهو مطلب على غير المسلمين. أمَّا من يجاهر بالإفطار من المسلمين في بلاد المسلمين فله شأن آخر، سواء أكان من أبناء البلاد، أم من العاملين فيها من الوافدين المسلمين. ونعلم أن هناك مسلمين قد لا يصومون، والصوم مسألة – في هذا الشأن بالذات – واضحة فيها العلاقة المباشرة بين العبد وربه، ولا مجال فيها للمجاملات، أو الرياء، أو أيِّ سلوك يراد به الآخرون، فقد يَظهر لك المسلم صائمًا وهو في حقيقته مفطر. فإن كان هذا من الرياء فهذا أمر يعود في نتائجه على الشخص نفسه، ولا يستفيد من وضعه هذا أحد من الناس.

عدم المجاهرة بالإفطار في أيام شهر رمضان المبارك، على ما فيه من فائدة اجتماعية واضحة، فإن فيه فوائدَ دعويةً كثيرةً. وهناك من قرُب من الإسلام، حينما عايش هذا السمت بين المسلمين، وحينما رأى هذه الروحانية التي تعمُّ الجميع في نهار شهر رمضان وفي ليله. فكان من نتائج هذا القرب الدخولُ في الإسلام، بهداية من الله تعالى. وتصوَّروا لو أن الأمور متروكة دون ضابط، يختلط فيها الصائم بالمفطر، ولا فرق فيها بين من هو مسلم وغير مسلم، لكان مردود هذا على غير المسلمين عكسيًا.

ليس هذا فحسب، بل إن تجربة الصيام في بلاد غير مسلمة كان لها أثر دعوي كذلك، إذ واجه المسلمون ترحيبًا من الأهالي، الذين يصل إليهم خبر دخول الشهر المبارك، فيتعاطفون مع المسلمين الصائمين إلى درجة عدم المجاهرة بالإفطار أمامهم، لاسيَّما في المجتمعات الصغيرة مثل الحي الصغير، أو مكاتب العمل، أو فصول الدراسة.

لقد واجه الطلبة المسلمون شيئًا من هذا التعاطُف حينما كانوا يعيشون في تلك البلاد؛ لأن القوم هناك يحترمون الشخص الذي يحترم نفسه ويقوم بأداء مشاعره، باعتدال وعفويَّة، بغضِّ النظر عن المكان، ويحتقرون، بالتالي، من لا يحترم مشاعره، فيجاهر بالإفطار في شهر رمضان المبارك، في وقت لا يتوقَّع فيه أن القوم يدركون أنه في وقت صيام، وهم يدركون ذلك عمومًا، ويسمعون عن هذا الشهر المبارك، بل إنهم يشاهدون النقل المباشر لصلاة القيام من الحرمين الشريفين، وقبل ذلك الإفطار الجماعي

في الحرمين الشريفين، مما سيزيد الوعي عندهم، وبالتالي زيادة عدم احترامهم للمسلمين، الذين لا يتمثّلون هذا الشهر المبارك.

علمت، أيضًا، أن جاليات غير مسلمة تعيش بين المسلمين، في البلاد العربية والإسلامية، تحتفي بهذا الشهر، وتشارك المسلمين صيامهم وإفطارهم، لا إيمانًا بهذا الركن، ولكن تعاطُفًا مع المسلمين، الذين احترموا أنفسهم وأظهروا، دون رياء، حلول الشهر المبارك. إذًا، فالفائدة التي يمكن الخروج بها من هذه الوقفة أنه متى ما احترم المسلمون أنفسهم بأدائهم شعائرَهم على الوجه الذي جاءت عليه، كان مردُّ ذلك احترام الآخرين لهم، سواء في المجتمعات المسلمة أم في غيرها، ولا اعتبار للحالات الشاذَّة.

في هذا المقام هناك حادثة، تُذكَر شعبيًا، وفيها دلالات أيضًا على أن المسلمين إذا احترموا أنفسهم في أدائهم شعائرهم احترمهم الآخرون، وتعاطفوا معهم، إذ يُذكر أن رجًلاً غير مسلم يرأس مجموعة من العمال المسلمين في القيام بمشروع ميداني. وحلَّ شهر رمضان المبارك في وقت يحلُّ فيه الشهر الكريم في الصيف، فجمع الرئيس غير المسلم عمَّاله المسلمين، وأشعرهم بعلمه بدخول شهر رمضان المبارك، وأنه سوف يؤثِّر على الإنتاجية في العمل الميداني. وأراد، ظاهرًا، أن يعقد معهم صفقة بأن من يفطر ويعمل جيدًا سيزيد من مكافأته، وأن من يصوم ويقلُّ عمله سوف يحسم عليه من مكافأته، وتركهم يموج بعضهم في بعض.

افترق العمَّال المسلمون إلى فريقين؛ فريق آثر المادَّة، فرأى الإفطار، والله غفور رحيم وعليم بما في الصدور. وفريق آخر أصرَّ

على تقديم حق الله على أي اعتبار آخر، والله تعالى هو الرزّاق الكريم. وبيَّت كل فريق النيَّة على ما ذهب إليه، وأصبح العمَّال فيهم من هو مفطر، وفيهم من هو صائم، وعمل الجميع. وكان العمل لم يتأثَّر سلبًا بالصيام، ولم يتأثَّر إيجابًا بالإفطار.

انتهى اليوم الأول من شهر رمضان المبارك حافلاً بالعمل، والترقُّب، كذلك، من هؤلاء العمَّال، فجمعهم الرئيس غير المسلم، ووزَّعهم على فريقين؛ الفريق الذي استجاب لاقتراحه وأفطر، والفريق الآخر الذي استجاب لأمر الله تعالى، ولم يفطر، وتبيَّن – وهذه زيادة من الراوي – أن الذين أفطروا قليلون، مقارنة بمن لم يفطروا. فما كان من هذا الرئيس إلا أن "سرَّح" المفطرين من العمل، بعد أن وبَّخهم أمام زملائهم، وبالتالي ضاعف من مكافأة الذين أصرُّوا على الصيام، وحجّته في هذا، كله، أن من لم يحترم حقَّ الله تعالى عليه، فلن يحترم حقوق الناس عليه.

قد يُنظر إلى هذه الحادثة من جوانب مختلفة، منها أن هذا الرئيس غير المسلم قد خدع العمَّال المحتاجين. لاسيَّما أنهم غير عالمين، وإمكانية التهاون لديهم واردة. وهذا فيه صحة واضحة. ولكنه كان اختبارًا قويًا لمدى احترام هؤلاء لشعائرهم في سبيل أن يحترمها الآخرون.

هكذا تتكرَّر الصور، ولكنها في الأخير تصبُّ في القاعدة التي سعت هذه الوقفة إلى ترسيخها، وهي أنه كلما احترم المسلمون شعائرهم، بتمثُّلها في حياتهم، احترمها الآخرين، ممن يعيشون معهم. وربَّما كان هذا الاحترام مدعاةً لهداية الآخرين،

عندما يرون القدوة الفعلية في الممارسات اليومية في كل مكان، وكل الظروف.

* * *

الوقفة العاشرة

الفقراء في رمضان

في هذا الشهر الكريم يكثر الخير من العبادات المباشرة في العلاقة مع الله تعالى، والعبادات التي ينال منها عباده خيرًا، كالزكاة والصدقات. ومع كرم هذا الشهر الكريم ينتشر الشحَّاذون في هذه البلاد الطيبة الكريمة، إلى درجة السفر إليها من الخارج قصدًا إلى الشحاذة، ومن يملك القدرة على السفر في بلاده إلى البلاد الطيبة هل هو، أو هي، ممن يستحقُّون الصدقة ناهيكم عن الزكاة؟

لقد أصبحت الشحاذة صنعةً، ولم تعد مجرَّد ضرورة. ونحن المواطنين لنا موقف عجيب مع الشحَّاذين، نحن ننظر إليهم بعاطفة، غالبًا، لا بعقل غالبًا، ولذا ترانا نقف معهم ضد المسؤولين عن مكافحة التسوُّل، الذين يريدون تنظيف الأماكن والشوارع من مجموعة من المحتالين، الذين أفسدوا على المحتاجين حقًا. وهذا يعني أن هناك محتاجين حقًّا، ولكنهم ضاعوا بين المحتالين الذين جعلوا من موسم الشحاذة في شهر رمضان المبارك مصدرًا للرزق إلى الموسم القادم.

الفقر سنة من سنن الله في الكون، ومن حكمة الله تعالى أن يكون على ظهر البسيطة أغنياء وفقراء، ابتلاءً للغني بأمواله،

وابتلاءً للفقير بالعوز الذي يحيط به من كل جانب. وربّما لو تحوّل الغني إلى فقير لأفسد الفقرُ عليه دينَه، وربّما لو تحوّل الفقير إلى غني لأفسد عليه الغنى دينه، كما يقول الحافظ ابن كثير في تفسير القرآن العظيم عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (العنكبوت ٦٢)، فهناك محتاجون، وسيظل هناك محتاجون. ولست مع من يقول، إعلاميًا، إنه ليس لدينا فقراء.[1]

على أي حال ليس هناك في موضوع "الشحاذة" أبيض وأسود، فالمساحة الرمادية في هذا الشأن واسعة، وتحكيم العقل، مع أنه مطلوب، إلا أنه قد يصدر من الحكم بأن جميع الشحاذين محتالون، وتحكيم العاطفة، ومع أنه أحيانًا مطلوب، قد يصدر من الحكم بأن جميع الشحاذين محتاجون.

هناك مؤسّسات رسمية وأهلية، تعنى بشؤون الفقر، ولديها الممارسات النظامية، التي تستطيع من خلالها الحكم على المحتاجين، ومدى حاجتهم. وتحتاج هذه المؤسّسات إلى التخلّص من العوائق الإدارية، وزيادة مساحة المرونة في الأحكام، التي لا تصل

---

(١) نُشرت هذه الوقفة، في الصحافة، قبل سنة ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م. وانظر: صالح بن محمد الصغير وعلي بن إبراهيم النملة. مواجهة الفقر: المشكلة وجوانب المعالجة. — الرياض: المجلة العربية، ١٤٢٥هـ. — ٣٨ ص. — (سلسلة كتيّب المجلة العربية، ٩١)

إلى حدِّ التسيُّب، لتقوم بمهمَّتها، وتكسب توجُّه المحسنين إليها مباشرة، بدلاً من ممارسة العمل الخيري، كيفما اتَّفق. فالفقراء، مع أنهم فقراء، إلا أن معظمهم على قدر عالٍ من العفَّة، بحيث لا يعلنون عن فقرهم على رؤوس الأشهاد، ويحتاجون إلى النظم الإدارية والاجتماعية، التي تكشف عن حاجتهم، دون خدش للعفَّة، التي تحدُّهم عن السؤال. أما أولئك الذين غسلوا الحياء من وجوههم، واستغفلوا خلق الله الطيبين، فإنهم بحاجة ملحِّة إلى تغليب العقل، والوقوف مع رجال مكافحة التسوُّل في ردعهم عن استغلال الطيبين من أهل الخير.

مع أني أفضِّل أن أكون في المساحة الرمادية، في عدم القطع في الحكم، إلا أنني أرى أن الاستغلال قد طغى على الحاجة، وأن هذه الظاهرة "غير الحضارية"، التي تزداد كل عام في شهر رمضان المبارك، ينبغي قطعها من جذورها، متمنِّين لرجال مكافحة التسول المزيد من التوفيق في الحدِّ من هذه الظاهرة، ومتمنِّين لرجال الخير مضاعفة الإحسان للمستحقِّين بحق، وإعفائهم من غسل الحياء من وجوههم، بكثرة السؤال من أولئك الفقراء: ﴿ ٱلَّذِينَ أُحۡصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ ضَرۡبٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ يَحۡسَبُهُمُ ٱلۡجَاهِلُ أَغۡنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗاۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة ٢٧٣).

الوقفة الحادية عشرة

الإعلام في رمضان

تمارس المملكة العربية السعودية الدعوة إلى الله تعالى، على أنها جزء فاعل من كيان هذه الدولة. ونرى طرقًا عديدة ووسائل شتَّى لهذا العمل المبارك على مدار العام، ونحتاج إلى وقفات متعدِّدة، لرصد هذه الوسائل الدعوية، المباشرة وغير المباشرة.

لعلِّي أتوقَّف، هنا، على وسيلة، قد تُرى على أنها غير مباشرة، ولكني أراها دعوة مباشرة، ولذلك نجد أن هناك اختلافًا في تحديد الدعوة المباشرة من غير المباشرة، على أننا نعلم أن في كلٍّ خيرًا، وربَّما كانت الدعوة غير المباشرة أكثر تأثيرًا. هذه الوسيلة هي ما نطالعه ونسمعه ليليًا في ليالي شهر رمضان المبارك من نقل مباشر من بيت الله الحرام في مكَّة المكرَّمة لصلاة العشاء ثم القيام أول الليل وآخره، ينقلها التلفزيون السعودي بقناته الأولى العربية،

تنقل العشاء القناة الثانية الإنجليزية الصلاة ذاتها من مسجد رسول الله ﷺ في المدينة المنوَّرة، ويتزامن نقل القناتين السعوديتين نقل كذلك من قنوات فضائية أخرى. ويرى الناس، الذين يقفون عند هذا النقل المباشر من أي قناة، هذا الجمع الغفير الذي غطَّى الحرم المكِّي داخله، وساحاته خارجه، من المصلِّين الذين يبتغون

رضا الله والجنة، جاءوا من كل فجٍّ عميق ليشهدوا منافع لهم ويذكروا الله تعالى في أيام رمضان المبارك.

هذه وسيلة من وسائل الدعوة تترك أثرًا في النفوس، النفوس المؤمنة، التي ترى هذا المشهد الروحاني، فتزداد إيمانًا مع إيمانها، والنفوس غير المؤمنة، التي تبدأ التفكير في هذا المنظر البديع، الذي لا يمكن إلا أن يكون عن إيمان بأمور تستحق الإيمان، وإلا كيف يجتمع كل هؤلاء في مكان واحد، وزمان واحد، وخلف إمام واحد.

الذين يمارسون هذه الشعيرة على أنها عبادة لله تعالى، يرجون من ورائها رحمته ويخافون عذابه، وقد يغيب فهم هذا الإحساس، الذي يحسُّ به من لا يمارسها عبادةً لله، بل ربَّما كان موقفه منها بحكم اختلاف المعتقد موقفًا غير حسن، ولكنه حين ينظر إلى هذا المشهد يتكرَّر كل ليلة، مع احتمال أن هناك نسبةً عالية ممن صلَّوا هذه الصلاة في الحرم، هم غير من صلَّوا الصلاة نفسها الليلة البارحة، أفواج قادمة وأفواج مغادرة، ويصل العدد إلى أكثر من مليون مصلٍّ، بل قد يزيد، لاسيَّما عند تحرِّي ليلة القدر. هذا المنظر البديع لابدَّ أن يترك أثرًا في النفوس غير المؤمنة، فيقودها إلى الإيمان بإذن الله تعالى.

هكذا تكون هذه الوسيلة إحدى الوسائل في مجال الدعوة إلى الله تعالى على علم وبصيرة، تمارسها المملكة العربية السعودية في هذا الشهر المبارك، ثم في شهر ذي الحجّة، عندما تجتمع القنوات العربية والإسلامية لنقل الشعائر، مما جعل القنوات العالمية

تفرد حيِّزًا من وقتها للتعريف بالإسلام، من خلال هذه المشاهد الجميلة، ثم في أيام الجُمع من كل عام، حين تنقل صلاة الجمعة وخطبتيها من المسجد الحرام، ومسجد المصطفى محمَّد بن عبدالله ﷺ، فتألف الأنظار هذه الشعيرة المباركة، ثم تألفُها القلوب، ومن لا يؤمن من غير المؤمنين يبقى لديه أثر حسن عن ذلك كله.

* * *

الوقفة الثانية عشرة

الفرحة في رمضان

يفرح المسلمون بختام شهر رمضان المبارك، فللصائم فرحتان، فرحة عند فطره وفرحة عند لقاء ربه. والفرحة الأولى حينما يشعر الصائم أن الله تعالى قد منَّ عليه بصيام هذا الشهر المبارك. وهو شهر مبارك لأنه يتكرَّر على المسلمين كل عام، إلا أن لكل مرَّة يحلُّ فيها هذا الشهر المبارك طعمًا خاصًا يختلف عن السنة التي قبلها، شهر رمضان الذي قبله، مع أن بيننا من صام أكثر من خمسين مرة، أو تزيد لتصل عند حالات بعينها إلى السبعين مرَّة في حياته، منذ عرف الصيام، ومع هذا فإنه، أو فإنها تشعر بحلاوة هذا الشهر الكريم في كل مرَّة يمرُّ بها علينا نحن المسلمين. وهذا من كرم الله علينا أن ننظر إلى الصيام والقيام على أنه عبادة، وليس مجرَّد عادة، وحرمان من الشهوات المباحة، والراحة المطلوبة.

مع هذا فهناك أخوة لنا لن يتمكّنوا من الفرحة هذه، ذلك لأنهم لم ينتظروا أن يفرحوا مع الناس من المسلمين، ولعلهم استعجلوا الفرحة الكبرى، عندما يدخلون في البرزخ، يتمنَّون قيام الساعة، أو سرعة قيام الساعة، ليلقوا الله تعالى وهو عنهم راضٍ. ومن هؤلاء من مات وهو صائم، ومنهم من مات وهو يدعو الله تعالى إلى أن يبلغه شهر رمضان المبارك، ولكن أجله عاجله. ومنهم من لا يستطيع الصيام الآن؛ لأنه لا يشعر بما حوله، فهو ميِّت وليس

بميِّت، ولله في خلقه شؤون، ومنهم الشاب الذي انتزعته المنيَّة من بين يدي أهله انتزاعًا، وتعدَّدت الأسباب والموت واحد، فما كاد أهله يصدِّقون أنه ليس بينهم، مع أنه لدقائق معدودات كان يصول ويجول في البيت، على عادة كثير من الشباب، إلا أن الصوت انطفأ، بسبب الموت، الذي نتج عن حادث من الحوادث.

هذه حال الدنيا، وهذا حال الموت، وهذه حال الآجال، وكأننا نتفقَّد إخواننا في شهر رمضان المبارك، لنتعرَّف على من أدركه هذا العام، وعلى من لم يدركه فنترحَّم عليه، وندعو الله تعالى ألا يحرمه الأجر. ويفرح المؤمنون بأنْ وفَّقهم الله تعالى للصيام والقيام، ويدعونه تعالى لأشهر تأتي أن يتقبَّل منهم ذلك.

المحروم منا من سيطلُّ عليه العيد فيوجب عليه الفطر، وهو لم يوفَّق في هذا الشهر الكريم من أن يفرح؛ لتفريط وتهاون وطاعة للشيطان، الذي سوَّل له أن الوقت معه، ويمكن أن يصوم من العام القابل، وكل قابل يأتي يمنِّيه الشيطان بالقابل بعده، فلا يفرح مع الذين يفرحون الفرحة الأولى، وإذا ما أصرَّ على طاعة الشيطان في كل عام، فإنه قد لا يفرح مع الذين يفرحون الفرحة الكبرى، وقد لا يفتح له باب الريان، الذي لا يدخله إلا الصائمون، وهذه خسارة عظيمة يفرح لها الشيطان، الذي يرى قمَّة فرحه في خراب بيوت الناس.

هنيئًا لمن يفرحون بتمام هذا الشهر المبارك، ودعوات بين يدي الله تعالى أن يجعل الجميع من المقبولين، وأن يمدَّ في العمر ليشهد الناس شهورًا تأتي، فيزيدون من الطاعات، ويتقرَّبون إلى الله تعالى

أكثر، لينالوا في النهاية الفرحة الكبرى، حينما يقفون بين يدي الله تعالى، ينظرون إلى وجهه الكريم، وينعمون بالحياة الباقية، حيث لا عمل ولا تكليف، وإنما ثمار وحصاد لزرع في الدنيا.

* * *

الوقفة الثالثة عشرة

في وداع رمضان

هناك شعور، ليس خاصًا أو شخصيًا، أن كل شهر كريم يحلُّ على المسلمين يكون ذا طابع خاصٍّ. يختلف عن الشهور الكريمة الماضية. ذلك أن الذين يعنيهم هذا الشهر الكريم يسعون إلى استغلال كل الوقت فيه بالعبادة، بالمفهوم الشامل للعبادة، الذي يعني التغيُّر الواضح، حتَّى في أداء الواجبات اليومية، في المسؤوليات المناطة بالشخص، داخل محيطه الخاص وخارجه.

كل شهر كريم يمرُّ على المسلمين يزداد تعلُّقهم بالله تعالى، زيادة أفقية، كما هي الزيادة الرأسية، وأستطيع القول، دون أن أتَّكئ على الإحصاءات السنوية، أن عدد الصائمين القائمين يزداد من سنة إلى أخرى.

مشاعر شهر رمضان الكريم لا تتغيَّر، من حيث هي صيامٌ وقيامٌ وعبادةٌ وقراءةُ قرآن وبرٌّ وصدقة، فهكذا كانت من قبل، وهكذا يتوقَّع لها أن تكون، مع تطوُّر في الأساليب والأسباب، بفضل من الله تعالى، ثم بفضل ما وصل إليه عقل الإنسان من نموٍّ.

أما الأفعال والأقوال التوقيفية فهي هي لم تتغيَّر، منذ أنزلت على هادي هذه الأُمَّة محمَّد بن عبدالله ﷺ، ولذا فإني لا أميل مع أولئك الذين تبدو عليهم نبرات الأسى، حينما يرون أن "مظاهر"

رمضان قد تغيَّرت عنها اليوم من ذي زمن ليس بالبعيد، فتلك المظاهر القريبة لم تكن معروفة من قبل، وهكذا. والتغيير هنا في أشكال الاحتفاء بالشهر الكريم، وليس في أساسيات هذا الشهر، ولذا فإنه ليس هناك ما يدعو إلى الحسرة، عندما تتغيَّر الممارسات الاجتماعية، في أشكال استقبال هذا الشهر المبارك، ومظاهر ذلك، في ليله ونهاره.

أقول قبل الوداع، لأني أدرك، عقلاً، أن منا مَن لن يدرك الشهر القادم من الصائمين. وهذا واقع، إذ إن الحديث، هنا، عن أكثر من مليار مسلم، سوف يودِّع جزء منهم، قبل حلول الموسم الروحاني القادم. هذا بالإضافة إلى أن فوجًا أو أفواجًا من البراعم سوف تصوم الشهر القادم من العام القابل، ولم تكن قد صامته في هذا الشهر من هذا العام. فالدعاء سلفًا بالرحمة والمغفرة والعتق من النار لجميع من شهدوا هذا الشهر الكريم فصاموه، سواء قدَّر الله لهم أن يشهدوه من العام المقبل، أم أن آجالهم سوف تنقلهم إلى حيث ينعمون برياض من رياض الجنة، وهم ينتظرون الدخول إليها من باب خصَّصه الله تعالى للصائمين، يقال له باب الريان.

تهنئة صادقة بالفرحة في الإفطار لجميع أولئك الذين أسهموا في إسباغ هذه الروحانية العارمة في الشهر المبارك من جميع العاملين ليلاً ونهارًا، فجعلوا من أعمالهم هذه شكلاً من أشكال التقرُّب إلى الله تعالى.

نحن نودِّع شهر الخير والبركة، شهر العبادة ليلاً ونهارًا، في وقت يمرُّ فيه المسلمون بمرحلة صعبة جدًا من حياتهم، وبالأخصِّ

في الأعوام الأخيرة، حيث تكالبت عليهم الأمم، بوثنيتها ونصرانيتها ويهوديتها، واتَّضحت الرؤية أمام جميع المسلمين بأنهم مستهدَفون، لأنهم مسلمون، في هذا الوقت بالذات، ومع وداع شهر رمضان المبارك، يحلو للمرء أن يتمنَّى أن تستمرَّ روح شهر رمضان، في القرب من الله تعالى، فيما يأتي من الأيام والأشهر القادمة.

قد كان السلف الصالح يدعون ربهم ستة أشهر، بعد إتمام الشهر، ليقبل منهم الصيام والقيام، ويدعون المدَّة الباقية ليبلغهم رمضان القادم، وهذا الموقف يوحي بأنهم كانوا على صلة وثيقة مع الله تعالى، يدفعهم في هذا الرجاء والخوف، فلم ييأسوا، فيكونوا خائفين طوال الوقت، ولم يأمنوا، فيكونوا راجين طوال الوقت.

إن العلاقة القوية مع الله تعالى في شهر رمضان، وفي غير شهر رمضان، هي، أوَّلاً، كفيلة بأن تغيِّر من وضع المسلمين القائم، لأن هذه العلاقة سوف توفِّر على المسلمين أسباب القوة، وإن العلاقة نصر لله تعالى، ومن نصر الله تعالى نصره الله تعالى، في دنياه وآخرته.

قد لا تستمرُّ العلاقة مع الله تعالى تمامًا، كما كانت عليه في شهر رمضان في توالي الصيام، لأن هذا منهي عنه في الصيام أصلاً، ولكن الروح هي التي يراد لها أن تستمرَّ، والتعلُّق بالله ليلاً ونهارًا هو الذي يستمر. قيام الليل ليس مقصورًا على شهر رمضان، والصيام ليس مقصورًا على شهر رمضان، وقراءة كتاب الله وتدبُّره ليس مقصورًا على رمضان، وإنما يأتي الشهر المبارك، شهر الخير، ليقوِّي هذه الممارسات، ويؤصِّلها في النفس، فإذا ما

استمرَّت العلاقة مع الله تعالى من هذا المنطلق، وبهذه الروح كان حريًّا على الله تعالى أن يعزَّ عباده، وأن يمكِّنهم في الأرض، كما مكَّن لهم من قبلهم.

* * *

الوقفة الرابعة عشرة

إصرار على خدمة الصائمين

أكتب هذه الخواطر السريعة وأنا أُطلُّ على الحرم المكي الشريف – حماه الله تعالى من كل أذى – وأتأمَّل المسلمين الغادين والقادمين إلى بيت الله الحرام، حيث يشهد هذا البيت العتيق زحامًا منقطع النظير. رغم التوسعات التاريخية لبيت الله الحرام، وآخرها ما تمَّ في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز – رحمه الله تعالى – ورغم المزيد من الإصلاحات في الحرم، حيث أزيل زمزم من (صحن) الحرم، وحيث الساحات الواسعة حول الحرم الحرام.

هنا برزت في المخيِّلة فكرة يمكن أن تعدَّ معاكسة، تمامًا، لتلك الرحلات الترويحية (السياحية) لمناطق سياحية في العالم. فحالما يعلم الناس أن مكانًا سياحيًا في بلد ما تعرَّض لتحديات طاردة، يحجم الناس عن السفر إلى ذلك البلد. وتقفر مقومات السياحة، ويخسر الناس المستثمرون، على مختلف مستوياتهم، أموالاً، وفرصَ عمل.

إلا أن مكّة المكرَّمة والمدينة المنوَّرة تظلاَّن ذواتي خصوصية متميِّزة، حيث إنهما مهوى الأفئدة، رغم الهزَّات الآنية التي مرَّت بها البلاد، عمومًا، في الآونة الأخيرة، من خلال اكتشاف خلايا تنوي

العنف والتخريب، وإرعاب الناس، وإرهابهم، وترويعهم في البلد الآمن ﴿ وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (القصص ٥٧).

إلا أن الله تعالى يسلّم العباد والبلاد، فيقع هؤلاء، قبل إن يوقعوا بالناس. ويتعالم الناس عن ذلك ويعلن في الإعلام، وتبيّن المقبوضات، وتصدر بيانات رسمية متتالية، الأمر الذي زاد الناس اطمئنانًا، فكانت النتيجة هذا الإقبال المتزايد على الحرمين الشريفين، من كل حدب وصوب، جاءوا طاعة لله تعالى، وامتثالاً لأوامره، فلم تنجح تلك الفئة في إرهاب المسلمين، وإبعادهم عن بيت الله الحرام، ولم تتوانَ الجهات المسؤولة عن الحرمين الشريفين عن المزيد من خدمة ضيوف الرحمن، لاسيّما أنه ليس هناك مردود دنيوي تحرص عليه الدولة، أو تجني منه أرباحًا، لكنها تجني الأرباح غير المرئية دنيا وآخره، بالأمن والأمان والتوفيق.

لقد زاد عدد القادمين للعمرة في الشهر المبارك من خارج المملكة بمعدل مئتي ألف (٢٠٠,٠٠٠) معتمر وزائر عن العام المنصرم (رمضان المبارك سنة ١٤٢٥هـ). هذا من خارج البلاد، فما بالكم بالمتوجّهين إلى بيت الله الحرام من الداخل؟ حيث يصلي الجمعة أكثر من مليون مصلٍّ، في زمان واحد ومكان واحد، وخلف إمام واحد، إذا ركع ركعوا، وإذا سجد سجدوا، وإذا قام قاموا.

يصرِّح وكيل وزارة الحجّ لشؤون العمرة أن الأرقام هي الشاهد الحي على إصرار هذه البلاد وقيادتها على استتباب الأمن للمواطنين والمقيمين والمعتمرين والزائرين، فقد حلَّ بالبلاد أكثر من ست مئة ألف (٦٠٠,٠٠٠) معتمر وزائر من جمهورية مصر العربية، وأكثر من خمس مئة وخمسين ألفًا (٥٥٠,٠٠٠) من جمهورية إيران الإسلامية، وأكثر من ثلاث مئة ألف (٣٠٠,٠٠٠) معتمر وزائر من جمهورية الباكستان الإسلامية، وأكثر من مئة واثنين وسبعين ألف (١٧٢,٠٠٠) من الجمهورية العربية السورية، وأكثر من مئة وواحد وثلاثين ألفًا (١٣١,٠٠٠) من المملكة الأردنية الهاشمية، وأكثر من ثمانية وسبعين ألفًا (٧٨,٠٠٠) من الجمهورية السودانية، وقريبًا من ذلك من الجزائر وإندونيسيا وتركيا، وهكذا.

إنها مناظر مفعمة بالروحانية، وهكذا ينبغي أن ينظر إليها، دون الولوج فيما يكتنف ذلك من ممارسات بعض المعتمرين والمعتمرات، والزائرين والزائرات، من مخالفات تصدر عن حسن نية، وتلك مهمَّات علماء الأُمَّة وفقهائها من الجميع، وطلبة العلم فيها كذلك. ولا أرى أن يكون هذا مجالاً لتتبُّع النواقص، وإبراز جوانب التقصير، وإن كانت موجودة، فمن ذا الذي يملك السيطرة على أكثر من مليون شخص، رجالاً ونساءً، بل وأطفالاً، تجمَّعوا في مكان وزمان واحد، لولا فضل الله تعالى ومنَّته على هذه البلاد، ثم ما يحسب من حسن النية والإصرار على الرعاية التامَّة، وتذليل ما يعترض المسيرة المباركة من عقبات (لوجستية).

لم تتأثَّر شعيرة العمرة بما حلَّ بالبلد الحرام في مكانه وزمانه، وبالبلاد كلها، على المضي قدمًا في أداء هذه الشعيرة، وزادت المسؤولين عزيمةً على خدمة هؤلاء القادمين من كل فجٍّ عميق، ليذكروا الله ويسبِّحوه ويقدِّسوه بكرة وأصيلاً. زادها الله أمانا على أمان، وأبطل ما يعكِّر صفو هذه الشعيرة المباركة.

* * *

الوقفة الخامسة عشرة

عيد الفطر

إنني أعجب لبعض الكُتَّاب والمتحدِّثين الذين يحوِّلون هذه المناسبة السعيدة إلى "مناحة"، فينغِّصون فيها على الناس فرحة العيد، والعيد كما ينبغي أن يكون فرصة للفرحة بين الكبار والصغار، وهذا العيد عيد أكل وشرب وفرح، بعد تلك الرياضية الروحية في العبادة الخاصَّة بشهر رمضان المبارك من صيام الأيام، وقيام الليالي، وقراءة كتاب الله، والدعاء بالقبول. فيفرح الصائم أن أتمَّ الله عليه الصيام والقيام، فيأكل ويشرب ويروِّح عن نفسه، ألا ترون أنه في السُّنة أن يأكل المسلم والمسلمة تميرات قبل الخروج إلى صلاة العيد، إيذانًا بالأكل والشرب، والانتقال من حالٍ إلى حال؟

ثم ألا ترون أن هذا الشهر الكريم شهر النفقات، التي تُسهِم في تقليص المعاناة بين المسلمين، ففيه يفضِّل كثيرون دفع الزكاة السنوية، وفيه تكثر الصدقات والتبرُّعات والهبات، وتنشط الجمعيات الخيرية المحلية والإقليمية، ويؤدِّي المسلم فيه ما عليه من حقوق مالية، وما يرغب في الزيادة من البذل والعطاء؟ بعد هذا كله ألا يحقُّ له أن يفرح، ويُفرح من حوله من الصغار والكبار، فينزلوا إلى مستوى الصغار، في البراءة والعفوية والترويح البريء،

المطلوب للنفس التي تكلُّ إذا تكالب عليها الجدُّ في كل شيء؟ هذا أم نزع الصغار إلى مستوى الكبار وإدخالهم في أمور هي مبكِّرة عليهم، ولا يعرفون لها كُنهًا ولا سببًا؟

كثيرًا ما يردِّد الكتاب والمتحدِّثون بيت المتنبي المشهور، وفي هذا تشاؤم لا مبرِّر له، ولا يستدعي المقام مزيدًا من الوقوف على البيت أو القصيدة، فأبو الطيِّب يتحدَّث عن حاله هو، في عدم تحقيق طموحه، ولا يعني هذا تمثُّل البيت في العموم، وسحبه على الأُمَّة التي تعاني وتعاني. ويوم العيد لن يغيِّر ما تعانيه الأُمَّة، فلِمَ لا يفرح الناس بالعيد، وهم مأمورون بذاك؟ ولِمَ لا يجعلونها أيامًا ولياليَ للأكل والشرب والمتعة واللهو والترفيه البريء من كل ما يُخرج الفرحة عن طورها؟

مَا فَاتَ مَاتَ وَالمُؤَمَّلُ غَيْبٌ وَلَكَ السَّاعَةُ الَّتِيْ أَنْتَ فِيْهَا

ليس هناك ما يدعو إلى الحسرة على الماضي، وطعم العيد فيه، والمقارنة بين الماضي والحاضر، فذاك وقت مضى، وهذا وقت حاضر، ولكل زمان دولةٌ ورجال. ولا يعني هذا تعطيل كل شيء والرضوخ للواقع، ولكنه يعني أن لكلِّ مقام مقالاً، وأن المقام هنا هو مقام العيد والتهنئة فيه، وتوزيع الابتسامات والدعاء والدعوات، والاحتفاء بالعيد والاحتفال فيه، كلٌّ يفرح به على القدر الذي يمكنه من الفرح، ويدرك أن الأرزاق من الله تعالى، يعطي ويمنع. وكلٌّ يستطيع أن يفرح بطريقته. فنحن بحاجة إلى محطَّة استراحة، نتوقَّف عندها، ننظر إلى الجانب المضيء المشرق من الحياة، بعيدًا عن الآلام والفتن والمشكلات، إن استطعنا إلى ذلك سبيلاً.

افرحوا بالعيد، وفرِّحوا من حولكم، وروِّحوا أنفسكم، وادعوا الله أن يتقبَّل من الجميع صيامهم وقيامهم، وجدِّدوا نشاطكم بما هو متاح لكم. و"بدري" على مواصلة النشاط، فالدولة تعطي إجازة، والقطاع الأهلي يعطي إجازة. وأرجو من الجميع في هذه المناسبة عدم إساءة فهم هذه الفكرة، فهي لا تدعو لأكثر مما هو مشروع مطلوب في العيد.

* * *